النقد

٢ ـ أصدقائى الشعراء !

هذا لا يؤدى

بقلم معاوية محمد نور

وعندى أن السر فى أن شعر على محمود طه المهندس قد نال شيئاً من التقدير والثناء مرجعه لأجادة الصنعة والصقل ، ولو أن مواده هى الأخرى تافهة بدائية المعنى ، غير صادقة ، يموزها الشعور الفردى القوى ، والنظر الأصيل الواحد .

ثم لأن العرف الدارج والعقل الشعبى قد تعود أن يقرن الشعر بمظاهر الطبيعة المعروفة . فيقول الناس عن ليلة مقمرة : إنها ليلة شعرية ، أو عن روضة فيحاء : إنها تبعث على النشوة والسرور ، وإنهما لكذلك . غير أن الشاعر الذى لا يتعدى فى نغمه ووعيه الشعرى سوى ترديد ما تواضع عليه الناس وأقروا به ، إنما يدل على أن المحاكاة والتقليد والعرف الدارج هى أميز خواص فكره ، وأخص ميادين لعبه الفكرى .

وعلى محمود طه يكتب عن الطبيعة ويستوحى النهر والبحر والغدير والقمر والأشباح والرياض والشفق ، ويفهم أن « الطبيعة » التى يجدر بأن تنظم شعراً هى الطبيعة فى أضخم مظاهرها وأعظمها ، وأوقعها فى الحس ، وأشدها رائحة ، وأهولها منظراً ؟ وهو لا يفهم هذا الفهم ويتجه اليه لأن مزاجه هكذا ، ولكن لأن هذه الأشياء قد كثرت فى الشعر وأصبحت معروفة معترفاً بها على أنها تصلح موضوعاً للشعر ، ولو لم يحس الأديب تجاهها بأى شعور غريب أو نظر جديد .

وبديهى أن الشاعر المعاصر الذى لا يلتفت فى عالم الطبيعة إلا الى المظاهر التى التفت اليها خلائه من عهد آدم ، يدل أولاً على أن تقدمه الذهنى وقف هناك ، وأن وعيه الفنى لم يتطور ؛ ففى الطبيعة خلاف البحر الذى يقف عنده القروى ، وفى الطبيعة خلاف الشواطئ التى تقف عندها سفن البحارة ، أشياء أخرى أدق وربما كانت ألصق بحياتنا وأجدر بالتفات الشاعر . فالحجر الصلد الذى يقف فى طريقك ، و « الشارع » الذى تصقله مصلحة التنظيم حيث يعمل جماعة المهندسين ، والفأر الهارب من سفينة خربة ، والذباب الذى يطن على جيفة عفنة ، وقطعة الحديد التى أكلها الصدأ ، والخشب الذى تأكل عليه ، والزرع الذى نلبسه ثيابا ، والعصفور الوحيد الذى ينتقل من بيت لآخر ، والنمل ، والنحل ، وصوت الباخرة ، وضجيج الترام ، وخلافها من المظاهر التى نراها ونسمعها فى غدونا ورواحنا هى أجزاء حية فى الطبيعة ؛ والالتفات اليها فى وضع جديد أتى به نظام حياتنا الراهنة وحضارتنا المعاصرة ، لأدل على فهم الطبيعة من آلاف القصائد عن البحر والشفق والنجوم ! .

ويجب ألا يفهم من هذا أننا ننكر على الشاعر أن يعنى بمظاهر الطبيعة الكبرى البدائية الجميلة أو المتوحشة ، ولكن هنا يقل الابداع ، ولا يسلم الشاعر من الاسفاف والتفاهة ، إلا اذا كان عملاقاً عظيم النظر فريد الشاعرية ؛ كما أننا لا ننكر الالتفات الى « المظاهر الرومانتيكية » التى يولع بها المهندس ، ولكن هذا الالتفات وهذه العناية « بالريميات » يسهل فيه الغش ، وتندر به الاجادة والتفرد ؛ وهو أقرب طريق يلجه الأديب القليل الحيلة ، المقلد الأسلوب ، الذى لا تميزه شارة ، ولا يستشف فى تكوينه إصالة نظر أو عمق تفكير .

وكثير من شعراء أوربا المعاصرين اقتربوا من الموضوعات الرومانتيكية بأسلوب جديد ، فبدلاً من الحديث عن سحرها وخوفها وهولها ، تراهم يحاولون تفسيرها والنظر اليها من خلال شعور وعقلية رأت وسمعت وقرأت ما يجعلها تنظر الى هذا الجمال والهول والخوف من زوايا جديدة ليس فيها ذلك الجهل الناطق .

فان كل شيء لا يعرفه الانسان يبدو له سراً تحار فيه الأذهان ، ولو كان من أبسط البسائط !

فالقروى الذى يزور القاهرة لأول مرة ويشاهد « المصعد الكهربائى » لا يمكنه إلا أن يذكر الله والأسرار ، وتتملكه الحيرة والعجب ، فاذا حاول مثل هذا الرجل أن ينظم قصيدة عن « المصعد » فقد تروق لأمثاله الذين لا يعرفون الميكانيكيات « وقوانين الطبيعيات » . ولكن القارئ المتحضر لا يستطيع قراءة قصيدة تنسب الى هذا المصعد أهوال الجن وعمل الشياطين !

فالثقافة ووعى العصر الذى نعيش فيه لابد منهما لأى فنان يكتب ليقرأه الجيل الذى يعيش بينه ، وذلك لأن الشاعر المصرى المعاصر لا يعيش فى « شبره » أو « ديوان حكومى » ، ولكنه قبل ذلك إنسان حى يعيش فى كل العالم ، ويحس ببعض ما يدفع بالنفوس الآدمية الى مناجاة النفس مثلاً فى روسيا ، أو الحركة والعمل فى أسبانيا واليابان . والذى يستطيع أن يرى فى شارع عماد الدين مثلاً وجوهاً وأجساماً وثياباً وآلات كاملة الصنعة مصقولة المظهر ، يخبر مظهرها عن السكون والاطمئنان ، غير أنها تفتح عوالم داخلية مروعة . وبالاختصار فان الفنان الذى لم يحس بقبس أو لمحة أو ناحية من « تيار وعى » Stream of consciousness كامل يمكنه من رؤية التشابه فى أشياء ، ومظاهر بادية الاختلاف ، أو بالعناصر والقوى والفكر التى تذهب جميعاً لاخراج فكرة أو مظهر عادى مما نراه فى حياتنا اليومية ؛ ليس لديه تلك الملكة الشاعرة التى تستطيع أن تبنى للقصور من الرماد والهواء ، أو تحلل السيارة الجيدة الصنع ، الجميلة المظهر الى عناصر حلم وغفوة إنسان وعصب حيوان ، أو فقرات مادة ستجابية وجرح عامل فقير ، ليس له ذلك الاحساس النافذ القدير على التكوين والتحليل ، الذى يجبر القارىء على الانصات له والاستماع لنغمه الشعرى .

وإنى لأعجب كيف يعجب أى قارىء له حظ من الثقافة ودقة الحس بكلام مثل هذا :

رب ليل مر أمضيناه ضاحاً وعناقا
وأدرنا من حديث الحب خمراً تتساقى
فى طريق ضرب الزهر حواليه نطاقا
وتجلى البدر فيه ، وصفا الجو وراقا

فاذا كان هنالك حب وضم وعناق ، وزهر وبدر وجو رائق ، فالانسان العادى ليس به حاجة ليحس بنشوة آدمية حسية من غير أن ينظم له هذا الكلام شعراً . وإن أى افريق فى أدغال أفريقيا ، حينما يصفو الجو ، وينمو الزهر ، ويشرق البدر ، ويحب امرأة يستطيع أن يقول هذا الكلام .

وعند على محمود طه أيضاً شعور غير محمود بأنه شاعر ، ذلك لأنه قد ضم كل الشعريات وأحصاها فى ديوانه . فقصيدة ميلاد شاعر — مثلاً كلها تمجيد لهذا الرجل الذى يحسب نفسه شاعراً ، لأن لفظة الشعر والشاعر والزهور والألحان تكثر فى كلامه .

والرجل الذى يستطيع أن يكتب — بعد معرفتنا الحاضرة وشعورنا المحدود الذى أتاحه لنا العلم والبحث العصرى مثل هذه الأبيات الآتية ، إنما أحسده لبساطته التى لا تحسد .

وتجلى الصدى المتوف الساحر فى محيط من الأشعة غامر
وسكون بيث فى الكون روعاً وقفت عنده الليالى الدوائر (كذا)
واستكان الوجود والتفت الدهر وأصغت الى صداه المقادر (كذا)

وقد يتورط محمود طه فى غرامه « بالشعريات » برسمه صوراً — مضحكة إذا لم تكن مستحيلة كقوله :

ماؤه ذوب خمرة وسنا شمـ ـس وريا ورد وألحان طائر

وعنده اذا لم يجعل هذا الماء ذوب خمر وسنا شمس وريا ورد وألحان طائر فى آن واحد فهو ليس بشاعر . وأى منطق يستطيع أن يفهم شيئاً يكون سنا شمس محرقة ، وريا ورد ، ثم يكون فى نفس الوقت صوت طائر ؟ ! . اللهم إن هذا خلط قبيح لا نرضاه لصديقنا الشاعر .

وليس أدل على فهم شاعرنا لطبيعة الشعر من قوله فى رثاء شاعر :

وهو شعر صـــورت ألوانه بهجة الفجر وأحزان الشفق
ونشـــيد مثلت ألحانه همسات النجم فى أذن الغسق .

وفى قصيدة « الله والشاعر » بساطة مؤلمة فى أن يأمر أديب الأرض بأن :

مدى لمينيه الرحاب الفساح ورقرق الأضواء فى جفنه
وامسكى يا أرض عصف الرياح والراعد المغضب فى أذنه

فهذا كلام لا يشرف أى طالب فى مدرسة ثانوية ، فضلا عن شاعر عصرى . والقصيدة ملأى بهذه الأشياء التى تواضع

البسطاء على أنها الطبيعة التي لا طبيعة غيرها .

مر بنهر دافق سلسبيل تهفو القارى حول شاديه
في ضفتيه باسقات النخيل ترعى الشياه تحتها غانيه

فاذا كان هذا النهر ملحاً مثلا ، وكانت هنالك ضفادع على حوافيه ، وأحجار تدمى الأقدام بدلا من النخيل ، فليس هنالك طبيعة تجدر بالشاعر والشعر ! :

حتى إذا شارف ظل الشجر في روضة غناء ريا الأديم
قد ضحكت للنور فيها الزهر وصفقت أوراقها للنسيم

فهذا الشاعر لا يكفيه أن تكون هنالك روضة غناء ريا الأديم ولكن لا بد أن يضحك الزهر ويصفق النسيم لأول مرة !

أما المسائل الفكرية التي أثارها الشاعر في حواره مع الله فهي أول ما يقرأ الطالب في العلوم الدينية في باب القضاء والقدر . إن مسألة الاثم والشر لا يعالجها فنان عارف بمثل هذه البساطة

وفي قصيدة «قيثارتي» مثل قوي لهذه النزعة نحو «الشعريات» التي حاولنا إيضاحها ، وهذه هي أواخر الأبيات من غير تحوير ولا مبالغة ، ولو أنها أشبه بالمبالغة والتحوير :

الفور والآكام . الشعر والالهام . مودتي وذمامي — قديم هيامي . قلبي الدامي . دمعي الهامي . حبيسة الأنغام .

إن مثل هذا الشعر ليوحي الى القارىء الدقيق الحس كراهة الآكام والزهور والبحار والأنغام وما إليها لهذه النغمة المبتذلة الكثيرة التكرار ، التي لا تحس معها بواقعة حال صحيحة ، أو شعور نضر مباشر !

وإنما أتينا بهذه الاستشهادات لندل القارىء على أننا لا نتعسف ، وإلا فان الديوان كله يصح أن يستشهد به ، فما يخرج في الفاظه ومعانيه عن هذه الألفاظ والأمثلة والمعاني .

وقد كنا نظن أن أصدقاءنا من الجيل الجديد الذين يشتغلون بالشعر ، يفهمون الشعر على حقيقته ، وأنه ليس الفاظاً ومبالغات عن عالم الطبيعة والزهر والحب وما اليه من الألفاظ والأخيلة التي يسهل على أي يد تحرك القلم أن تأتي بها :

* * *

أصدقائي الشعراء ، أقولها لكم مخلصاً : إن هذا عبث قبيح بالكبار . وأقبح ما فيه أن يأتي من جيل جديد له دعوى كبيرة نسمع عنها في الصحف ، وهو على هذا التخلف العيب في فهم الفنون والحياة . ولو أننا رأينا الاتجاه صحيحاً ، وأن الطريق الذي تسلكونه مهما كانت النظرة زائغة والنغم غير منسجم لتساهلنا ، وكانت معالجتنا للموضوع غير هذه ، غير أن الطريق من أوله خاطىء ، وأن الفهم من أساسه غير صحيح ، وأن هذا الطريق لا يؤدي أبداً ، وأن الشيء الذي نسميه شعراً هو خلاف هذا في جملته وتفصيله ، فمن شاء منكم فليرجع الى نفسه يحاسبها ، وينظر من جديد ، ويقرأ ما يقول خلافه من الشعراء الفحول ، وخاصة المعاصرين في أوروبا ليرى في أي طريق تسير الأقدام ، وأي عوالم يكتشف الفنان المعاصر ، وأي المسائل يبحث النقاد ، وأي «وعي فني» يجدر بالفنان الحي الذي يعيش في عالم الأحياء الشاعرين .

معاوية نور

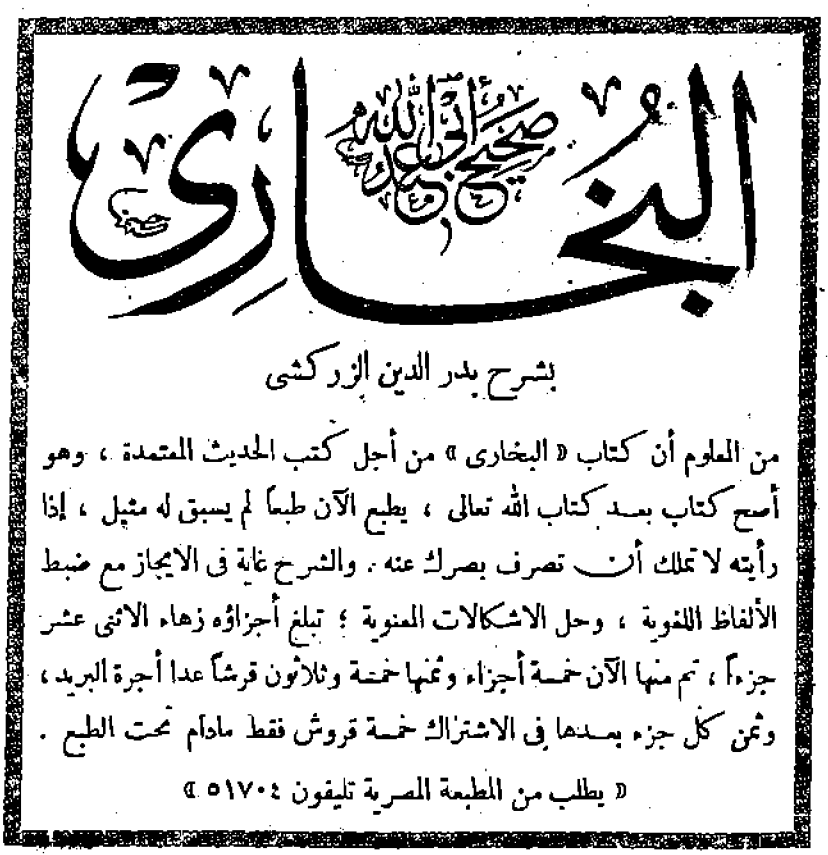

بشرح بدر الدين الزركشي

من المعلوم أن كتاب « البخاري » من أجل كتب الحديث المعتمدة ، وهو أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى ، يطبع الآن طبعاً لم يسبق له مثيل ، إذا رأيته لا تملك أن تصرف بصرك عنه . والشرح غاية في الايجاز مع ضبط الألفاظ اللغوية ، وحل الاشكالات المعنوية ؛ تبلغ أجزاؤه زهاء الاثني عشر جزءاً ، تم منها الآن خمسة أجزاء وثمنها خمسة وثلاثون قرشاً عدا أجرة البريد ، وثمن كل جزء بعدها في الاشتراك خمسة قروش فقط مادام تحت الطبع .

« يطلب من المطبعة المصرية تليفون ٥١٧٠٤ »